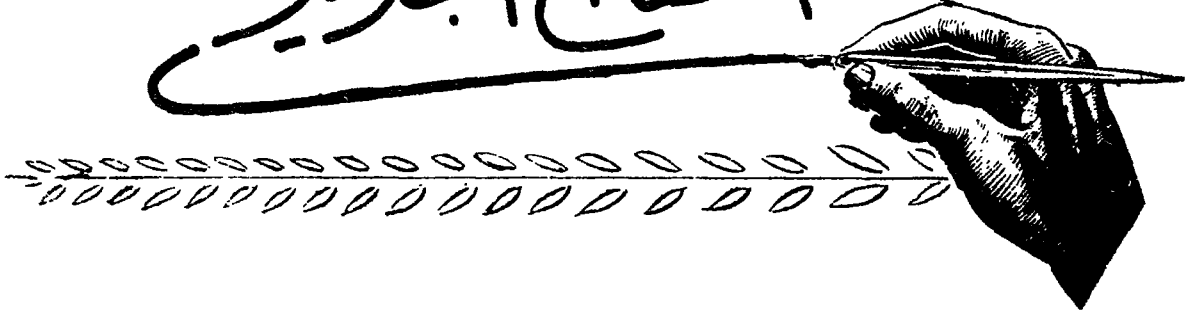


النتائج الجديدة



المعادلات الصعبة

قراءة لمجموعة « اناديك يا ملكي وحببي »

مهدي فاضل الدين

صباح التعب فاتحة القصائد ، من مطلع القصيدة يبدو الشاعر متحفزا للرحيل ، قاصدا عوالم اخرى لم تطأها قدم بعد . انها حال الشعراء الذين لا يستقرون على حال ، دائما يبحثون عن مواطن جديدة يحطون رحالهم فيها فيحاذون الصحارى الى واحات خضراء وبيادر غلة . وهنا تكمن عملية الابداع والخلق الفني :

ناوليني حذائي وقلبي

ناوليني العصا

وقربة ماء الحياة

انني داخل في فضاء الحقول البعيدة

ثم يتدرج في القصيدة مصورا غربة الشاعر عن العالم الذي يعيش فيه حيث لا وطن ولا صديق ، فيمهم وجهه شطر اماكن مجبولة دون ان يفقد الامل في استعادة صلاته الاولى بالعالم القديم .

اذا كان في الارض متسع للرحيل

فلا بد ان نلتقي .

يسيطر على محاور هذه القصيدة عالمان : عالم يموت ، وعالم ينهض . انها جدلية مدروسة ومعادلة صعبة يجمع فيها الشاعر بين النقيضين . وهنا تبرز عملية تغيير المقاييس في اكثر من موضع :

أ - طاهر مثل اول الخطايا

يصعب ان اجد ثغرة ادخل فيها الى عالم محمد علي شمس الدين الشعري . كنت ادور حول القصائد لانتزع منها مداما انفذ منه الى قصيدة ما ، لكن سورا منيعا كان يصدني ويمود بي الى مطلع القصائد : المكان الوحيد لولوجها . ومن هناك يأخذ الشعر بي متدرجا حتى ختام القصائد ، فالبنائية المتناسكة هي التي ترغمك على اتباع منهج الشاعر في التعامل النقدي معه .

مجموعة « اناديك يا ملكي وحببي » هي الخطوة الثالثة التي يخطوها محمد علي شمس الدين في عالم الشعر ، فانه بـ « قصائد مهربة الى حببتي آسيا » و « غيم لاحلام الملك المخلوع » استطاع ان يحتل مركزا مميزا في النتاج الشعري الجديد ، ثم جاءت مجموعته الثالثة لترسخ هذه المكانة ولتثبت ان شمس الدين يضفي حجرا جديدا الى عمارة الشعر العربي الحديث .

في « اناديك يا ملكي وحببي » يبدو محمد علي شمس الدين شاعرا متمردا يخرب داخل لعبة الشعر ، يخطط ، ينسف جسورا مألوفة ويعبد اخرى ، يستقي من التراث ، لكنه يقوله ولا ينقاد له ، يطلع على نتاج الآخرين فيهضمه ويسمه بمسمة الخاص ، حتى تظهر بصماته وليس غيرها على قصائد المجموعة . وبذلك تراه يقسو على نفسه بشكل يكاد يزهقها ، فلا تخرج القصيدة من بين اصابعه الا نقيصة مصفاة لا خلل فيها ولا ارتباك ، من هنا بنيت ما ابتدأت به فاتحة الكلمات ، مشيرا الى سور منيع يحصن قصائد المجموعة ويحميها من التصدع والانقسام .

في « اناديك يا ملكي وحببي » تظهر قصيدة

صباح التعب
ابتها الحجارة والهياكل والازهار

اما قصيدته الثانية « اناديك يا ملكي وحبيبي » والتي حملها عنوان المجموعة . فانها تكاد تكون فريدة في مضمونها واطارها . مميزة عن غيرها من قصائد المجموعة . فهي تلعب على وترين رئيسيين يمثل الاول الكبرياء العريضة الجريحة التي تنهض حيناً وتنحطم حيناً آخر : ممثلة بابي الطيب المتنبى وبعض خصاله ، والوتر الثاني يمثل الحلم الذي يتكرر عالماً في الافق الروحي ، يعوض عن تعاسة الواقع ويخلق آفاقاً جديدة في بعد كوني وانساني شامل .

ويبدو ان الشاعر درس المتنبى وجبران خليل جبران دارسة وافية استطاع فيها ان ينفذ الى عالميهما ويكون من بعض ما عندهما ادوات للتعبير ، بحيث تبدو الحالة الشعرية مواكبة للصورة الملائمة دون ان يتوكأ الواحد منهما على الآخر (الحالة ، والصورة) فلنسمعه في المقطع الاول الذي يمثل المتنبى المركز الرئيسي فيه قائلًا :

احمد الآن مرتحل ، في كتاب السماوة
يعبد نرجسة اسمها جسدي
يعتلي جبلا عاليا
ثم يشرف منه على نفسه

في هذا المقطع يحاول الشاعر ان يكون متجردا ، متخليا عن كل ارتباطاته السابقة : فهو يعنو فوق نفسه ويراقبها ليشاهد فيها تناقضات الزمن الحاضر فتتخذ الامور عنده شكل حوار يمثل بعدا من ابعاد النفس الانسانية . بهذا الحوار استطاع ان يزود القصيدة بدينامية وحركة دائمتين تفتحان فيها نوافذ تطل على آفاق جديدة :

تخاطب من ايها العالَم في الارض
- اخاطب نفسي
- ومن انت يا سيدي
- انا حارس هذا الركام .

ثم يحاول الشاعر ان يحل رموز الاشياء التي يشاهدها من موقعه البعيد ، فيتوصل الى حل الكثير منها ، لكن رموزا اخرى تحول بينه وبينها امور عديدة ، هذه الرموز الغامضة هي التي تمنح القارئ لذة الاكتشاف ، فلو ان كل الامور كانت مسطحة سهلة التناول يفقد الشعر بذلك متعة التساؤل والتحري عن فض مكنونات الامور

وماذا تقول النجوم
ان في القمح شيئا من الدم
حتى الكلام الذي قاله زارع الحقل امسى وريدا
ترحل اذا ايها الخارجي القديم

ب - عاشق ام مسيح بوجهين ، للنور وجه وللحزن هذا القناع .

ج - تدور الساعة ضد الوقت

د - اقترب الفجر واوشك النجم العمر يدوب

هـ - لكنني ضيعت الحكمة حين غراني الشيب

و - من يرجعني نحو التاريخ ، من يرجع هذا النهر الى المجرى ؟

ز - مينرفا لا تبصر وجه الامس . فهل تبصر وجه الآتي ؟ .

كل هذه التناقضات تتمحور حول مركز اساسي يبين صراعا بين عالم مضمي وعالم حاضر ، لكنها لا تتنكر للماضي كليا بل تستمد منه الايجابيات وتحاول ان تخلق منه روحا جديدة ومضمونا جديدا يتحدان (الروح والمضمون) لبناء آفاق فاعلة ضمن سياق القصيدة ، وهذا النوع من الكتابة لابس جديدا على الشاعر ، ويستطيع اي قارئ ان يتلمسه في مجموعتيه السابقتين ، ولا سيما في قصائد « وجه لامي من اربعة وجوه » ، « في مرآة مكسورة » ، وفي قصيدة « موت مطر الصقر وانثى الرماد » و « غيم لاحلام الملك المخلوع » ، وان كانت كل قصيدة تعالج نوعا من انواع الجدلية . ففي « صباح التعب » تبرز معادلة تقوم بين الماضي والمستقبل وهو بذلك يسير ضمن منهج مدروس اختطه لنفسه منذ اول بداياته الشعرية ، وان دلت هذه المعادلة على شيء فانها تدل على واقع لا بد من الحديث عنه . هذا الواقع يصور الزمن الذي كتبت فيه القصيدة . انه زمن الحرب سيادة التناقضات ، حيث تنعدم الرؤية وتسقط كل الاحكام ، وبالتالي يبرز وجه التناقض الذي يكتنف الوضع العام وينعكس طبعا على بعض جوانب القصيدة . من هنا نستطيع القول ان الشاعر بقي مشدودا الى عالم يعيش فيه ورغم محاولاته العديدة للافلات منه ، لا يستطيع اطلاقا ان يتخلى عن جذور التصقت بهذا العالم الذي تبرز فيه اشكالات عديدة تقلق الشاعر وتحاول سلخه عن وقائع عايشها وعاش ضمنها ، فيستعين بمقطع اساسي يصور هذا الواقع ويردده في اكثر من موضع :

فصراخ الوحش غريب
وصراخ الانسان غريب كالانسان

ثم يختم شمس الدين قصيدته بعد ان تمر عبارات الحزن والفناء - الموت والحياة - الحلم الواعي - الماضي والآتي ، وحيث يجد نفسه في عالم مليء بالتناقضات ينهي قصيدته بخاتمة تحريضية تدعو الى تغيير المألوف وتحض على خلق شيء ما يغير حيزا من هذه التناقضات الكثيرة :

يقول اذا الشمس عادت لعادتها
صباح المرات ايها البشر النائمون

كل نسيء هنا غابل للخديفة

النساء . الرجال . البحار . السماء . الكلاب
الممالك

وتغيب الشمس عن الكتفين فترحل قامتة
- اشارة الى ترحال المنبي الدائم
« يقولون لي ما انت في كل بلدة » الخ

ثم تمر القصيدة بلحظات يأس متعددة . لكن
الشاعر لا يستسلم لهذه الحالة بل يبقى مزودا بدرجة
عالية من الوعي تمكنه من حمل سيفه . وتحول بينه وبين
الاستسلام وينجح في خوض المعركة حتى النهاية .

« ان مرجانة القلب مفقودة

وانا عابر في بقايا القصور القديمة

هذا حصاني وسيفي واغنيتي المشتهاة

وامضي الى الحرب فلتبرز واحدا واحدا »

اما المقطع الثاني من القصيدة الذي يستغل فيه
الشاعر الحلم كتعويض عن فردوس مفقود والذي يشكل
جبران خليل جبران المحور الرئيسي فيه خصوصا في
« النبي » ومدينة اورفليس ، يبرز الموت في هذا المقطع
سيدا يحتل حيزا كبيرا من السطور .

نبدأ في الموت ولا نتعداه

فالموت هو الاحلام الموصولة

ثم يتدرج الشاعر واصفا رؤيا تتخذ شكل كابوس
مرعب مصورا هلالا ينشق فتسقط منه دماء تتسرب نحو
المستقبل ونساء فوق سطوح بيضاء يعاقبن الارواح
وشخصا وحيدا وجهه اصفر ويده علامة . ثم سرعان ما
يتبين ان هذا الشخص هو الشاعر نفسه ، وفي هذا
الجو الرهيب يطلق صراخا وحشيا بقصد الاستغاثة لكن
الأذان تبقى سماء عنه فيرتد نحو المرأة ليبرأ اثار الخوف
على وجهه فيلقى ظله ولا شيء آخر فيدرك انه وحيد
في غياهب الخوف والرهبة .

اما عن العبارات التي وظفها الشاعر لتعبر عن
بعض الخصائص التي تتعلق بشخصية المنبي فانها عديدة
نذكر منها .

١ - سيرلد في حارة الماء قرب المصلى

سبي تقبله امه قبله النار بين العيون

- اشارة الى مكان ولادة المنبي والى ابيه السفاء امام
مسجد الكوفة

٢ - هذا حصاني وسيفي واغنيتي المشنها

- اشارة الى خصال المنبي ولا سيما في قوله :
« الخيل والليل والبيداء تعرفني »

٣ - تأتيه الشمس من الكتفين فترحل قامتة

اما كيف استطاع الشاعر ان يوفق بين مقطعين
مختلفين فانه كان يمد الجسور ويستعمل قواسم
مشتركة كانت تربط بين مقطعي القصيدة المتباعدين .
ولعل اهم هذه الجسور هي التالية :

القسم الثاني

القسم الاول

- ما الذي يجعل الارض اصفر مما تكون
امد كلاما الى جسمها وفتتح باب الجنون

- خبرتني الطوالع قالت : سيأتي زمان
تدور الطواحين ضد الهواء .

- كان يجالسني فوق العشب على اكتاف مدينته
(اورفليس) .

- ويجاذبني اطراف الحلم واطراف العالم

- ويقول بان الله تكلم في حنجرة العصفور وحنجرة الوادي
وتروم في حنجرة الانسان .

- لا بأس قريب منك الله اذن وصلاتك اعرق من هذا
البحر وابتعد من تلك الشيطان

١ - ما الذي يجعل الارض اصفر مما تكون
امد لهيبا الى جسمها وفتتح باب الجنون

٢ - خبرتني الطوالع قالت : سيأتي زمان
ويولد في حارة الماء قرب المصلى
سبي . . او يتمادى فيلعب لعينه القاتلة

٣ - كان يجالسني في يوم الكراة في بغداد

٤ - ويجاذبني اطراف حديث لا يفهمه الانا

٥ - ويقول بان الله تكلم في حنجرة العصفور وحنجرة
الوادي وتلعثم في حنجرة الانسان .

٦ - لا بأس بريء منك الله اذن . وخاوية صلواتك منزل
بكاء الريح على زبد الشيطان

اما اهم التعابير التي تتعلق بشخصية جبران فهي
التالية :

١ - ينظر آونة للبحر وآونة في بحر كآبته .
اشارة الى قول جبران :

« والقي نظرة عميقة الى البحر فاخترج قلبه في
اعماقه » - النبي ص ١١ -

٢ - كان يجالسني فوق العشب على اكتاف مدينته
اشارة الى العبارة التالية :

« وهو يستلذ الجلوس على رؤوس التلال والنظر الى
مدينتنا » - النبي ص ٧٦ -

٣ - ليس هذا بكائي لجبران
لكنني اعلم ان الكتابة سري ...
فدعني احبك حتى الندم

اشارة واضحة الى قول جبران :

« اذا وجدت في نفسك ميلا للكتابة ولا يعلم سر هذا
الميل الا القديسون فلتكن فيك المعرفة والفن
والسحر ... » - رمل وزيد ص ٢٥ - الخ .

ويبدو واضحاً فيما تقدم ان محمد علي شمس
الدين استطاع ان يوظف هذين الرمزتين في عالم الشعر
وبالتالي كان قادراً على احداث الرعشة المطلوبة ازاء
العمل الفني الابداعي . فرغم تنافر الموضوع الذي يجمع
بين شقي القصيدة يجد القارئ نفسه مرتاحاً في
قراءتها واجداً فيها متعة تقوده من مطلع القصيدة
الى نهايتها .

اما قصيدة « ورشة القتلة » فمعظم اجوائها مستمدة
من الريف الجنوبي . ويظهر ان الشاعر قد عايش
القرويين وصور شيئاً من عاداتهم وتقاليدهم في سرد
شعري شيق . ويبدو شمس الدين في هذه القصيدة
منسجماً مع نفسه يعبر عن علاقات بيئية ينتمي اليها
وربما يكون قد تعمد هذا الاسلوب ليصل شعره الى
اكبر مساحة من الناس . فحتى الانسان العادي يجب ان
يشعر ان هناك اقلاماً تناصره وتوجه اليه والا اقتصر
الادب على فئة محدودة من الناس ، وبالتالي تنحصر
الكلمة في مجال ضيق لا تنفذ منه .

بعض عبارات القصيدة تعبر عن جو الحرب الذي
حاول الشاعر الابتعاد عنه في قصيدتيه السابقتين
وهو من بداية القصيدة يزود نفسه بالامل رغم اجواء
الموت والحزن والكتابة التي تسيطر في كل مكان .

جسدي دافئ

والاصابة مزقت الثوب

لكنها لم تزل معلقة بين جلدي

وبين السماء

رئتي لم تزل في منب الهواء

في عبارته الاخيرة يبدو الشاعر متفانلاً غير مستسلم
لليأس . فهو يدرك وضعه ويعرف ان فانوسه ممكن ان
يبدد غياهب الظلام والعتمة . ورغم خطورة الموقف ينذر
الشاعر نفسه صليبا وقربانا لانقاذ الانسانية المعذبة .

ان سبعين ألفاً من النجم تهوي
لتلمس هذا الدم المستحيل

فاجر حوني

انا ذبيحتكم في الزمان البخيل

في القصيدة تصوير دقيق لبعض العادات خصوصاً
نظرة القرويين الى رجل الدين وتقديسهم له معتمدين
كلامه منزلاً لا يجادل فيه ، بينما يستغلّ « جعفر
الدموي » هذه الظاهرة (سداجة القرويين) ليصل الى
ما يريد تحت ستار سيطرته الدينية .

ويظهر الشاعر في هذه القصيدة غريباً عن كل
ما يجري حوله وكان الاشياء تتخذ موقفاً عدائياً منه :

جسدي هارب

والقرى تدرج خلفي جواسيسها

قصب النهر

ثرثرة الماء في صمنه

وشايتيه بي

جعفر الدموي

والقرويات

والنعجة - الذئب . والريح والمدنة

ازاء هذا الحصار وأمام حشد الاعداء هذا ، يقدم
الشاعر نفسه خشبة للخلاص :

أقول وداعاً بلادي

وداعاً قيودي الصغيرة

لم يعد للمفني فم

ولا طعم للعاشقين

والذي يفصل الشمس عن طلها

ورشة القاتلين

الا ان ملاحظة تفرض نفسها في خاتمة القصيدة
حيث يفقد المعنى الاخير شيئاً من عدوبته وجماله .
فعند انسجام القارئ واهتمامه بمتابعة تفاصيل
القصيدة يفاجأ ببعض الاشكال الحسابية التي تحرم
القارئ من متابعة قراءة القصيدة ليفكر بحل هذا
الشكل وبالتالي تفقد القصيدة سيرورتها الاولى لتدخل
في شيء من التعقيد :

٧ كوب : نصف كوب من الدال

في

٧ كوب : نصف كوب من الميم

في

٧ نصف : نصف نصف السماء

ولست ضد استعمال اشكال جديدة في كتابة القصيدة . فلشاعر ملء الحرية في اختيار تعابيرها شرط أن تؤدي هذه التعابير مفادا جديدا .

اما « أغاني » محمد علي شمس الدين ، فانها تتمحور حول خطين رئيسيين : خط غنائي يدخل فيه البعد النفسي . ويشكل مركزا له ، وخط آخر يلعب فيه النغم على وتر داخلي وإيقاع عميق .

المحور الاول يضم : « أغنية للمطار » و « حديقة الانتظار » و « أغنية للبحر » و « أغنية للعناء » و « أغنية للرؤيا » و « أغنية للموت » و « أغنية كي تنام زينب » .

اما قصائد المحور الثاني فهي : « أغنية معدنية » ، « الطعنة » ، « يا ابن سينا يا أبي » و « أغنية للصخرة » .

لكن أكثر من قاسم مشترك يجمع بين أجواء هذين الخطين سيما وان مناخا متشابها يسيطر على معظم القصائد ، ولعل هاجس الموت والكلمات المعبرة عنه تطفئ على كل الاغاني بحيث لا تخلو قصيدة واحدة من الفاظ تدل بشكل او بآخر على موضوع الموت :

قناص ، مرمى ، دم ، تهوي الملكية ، العصفير نازية ، ضربة في الدوار على الرأس ، للموتى اذا قاموا ، المقصلة ، للدم القاسي حطام ، الموت ، قبر ، الجسد المنهار ، من يقتلنا ، بالاضافة الى قصيدة « أغنية للموت » والتي تعبر بكاملها عن هذا الموضوع .

في « حديقة الانتظار » و « زينب » ، و « أغنية الموت » تظهر تقنية محمد علي شمس الدين في فن الشعر ، فهو دائما يستطيع أن يوفق ويلآئم بين الحالة الشعرية من جهة والرمز والصورة من جهة أخرى ، عدا عن ميزة واحدة تغلف كل الاغاني ، وهي وحدة الموضوع ، بحيث نرى ان العبارة اللاحقة تتولد من العبارة السابقة ، وان أي حذف أو تغيير من شأنه أن يوقع خلافا في نظام القصيدة وسياقها العام ، ونستشهد في هذا المجال بقصيدة « الطعنة » :

– ابن انت ايها الصبي ؟

– افتح في ملكوت الله الواحد بابا للتكرار

– وافتح في التكرار طريقا يفضي للانثى

– وافتح في جسد الانثى بابا يفضي للوحشة

– وافتح في نفق الوحشة بابا يفضي للانسان

– وافتح في الفصل الثاني من فقرات الظهر

كتاب الجرح تجدني خلف الطعنة

اما قصيدتا « يا ابن سينا يا أبي » و « أغنية للصخرة » فيمكن اعتبارهما محطتين يقف عندهما الشاعر ليتأهب بعدهما للشروع بموضوع جديد ، وهما

لا تخلوان من نزعة صوفية ، اذ لا بد وان تراودك صورة اللجاج عند قراءة القصيدتين . ولا بد ان تتذكر بيته الشهير :

انا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان سكننا بدنا

ولعل قصيدة « زينب » من الاهمية بمكان يجعلها تتميز بصفة خاصة هي السهولة في الاداء والترابية في تادية المعنى ، فلا يستطيع القارئ امام نوع كهذا من الشعر الا أن يقف معجبا حين تصيبه قشعريرة الاعجاب . وهذا برأيي المقياس الاول للحكم على أي نتاج .

هذا عن الخصائص التي تمتاز بها القصائد كل على حدة . أما بشأن الانطباعات والملاحظات التي يمكن الخروج بها من المجموعة فانها عديدة نذكر منها :

١ - اللغة

في « ناديك يا ملكي وحبيبي » :

يظهر محمد علي شمس الدين مرتاحا من هاجس اللغة . فلم تعد التعابير البلاغية الشعرية من قرآنية ونحوية تشغل باله ، لكنه يتجه بلفته نحو منعطف جديد فيه من الخطورة الشيء الكثير . فالحالة ليست سهلة والراهنة تكون على استمرارية هذا النمط من الكتابة . فلسفة شمس الدين تضع القارئ في مفترق بين السهولة والتعقيد وفي فسحة بين العتمة والضوء . كموقف المتلمس الخيط الابيض من الخيط الاسود عند مطلع الفجر .

٢ - اللعب بمقاييس الزمن : من أول عبارة في المجموعة نستطيع أن نكتشف هذه اللعبة الفنية :

» الى

مينرفا وخديجة وآسيا وبلقيس

كل النساء التي ماتت غدا «

اما العبارات الاخرى التي تندرج ضمن هذا السياق فهي عديدة ، منها :

١ - تدور الطواحين ضد الهواء

ب - تدور الساعة ضد الوقت

ج - من يرجع هذا النهر الى المجرى

من يرجعني صوب التاريخ

د - لكنني ضيعت الحكمة حين غزاني الشيب

٣ - استحضار الشخصيات التاريخية واعطاؤها في بعض الاحيان ادوارا مختلفة عن ادوارها الاصلية . ومن الشخصيات التي ورد ذكرها في المجموعة : القيصر ، عبد الرحمن ، بلقيس ، مينرفا ، المتنبى ، جبران ، ابن سينا وغيرهم .

٣ - لا يمكن تصنيف شعر محمد علي شمس الدين في هذه المجموعة ضمن مدرسة أدبية واحدة . فتارة هو رومانسي حيث تتمثل هذه المدرسة عنده في مواضيعها المتعددة : الكآبة ، الحزن ، الخوف ، الوحدة ، الموت . وتارة هو سوربالي للرمز عنده مفهوم لا سهل حله ، فلنسمعه قائلاً :

انها تمطر في السر وقبل الكائنات
أو

لي طفل يبحث عن لعبته في قبر ابيه

٥ - تتسم معظم القصائد بنزعة مأساوية تترد بشكل أو بآخر الى الحزن الكربلائي وتتعداه أحياناً لتصل الى حدود المأساوية الاغريقية .

٦ - تقوم المجموعة على احاسيس ثلاثة تظهر تقريباً في مجمل القصائد . هذه الاحاسيس هي :

١ - احساس بالزمن .

٢ - احساس بالموت .

٣ - سديم وجداني عام تفرق فيه الاشياء .
يغلفها جميعاً الحلم كنفيز للواقع .

ولعل الحكم الاخير الذي يكونه الدارس عند قراءة هذه المجموعة هو ان محمد علي شمس الدين قد قطع مسافة في عالم الشعر لم يقطعها سواه من جيله الشعري الجديد . انه يحاول ابتكار المعادلات الصعبة : ان تكون البساطة حاملة أبعاد السوربال والوجدان يحمل ثقل المعدن .

مهدي ناصر الدين

ماجستير ادب عربي

* اناديك يا ملكي وحيبي - دار الاداب ١٩٧٩ .

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

ترجمة نزيه الحكيم

● ماركسية القرن العشرين

ترجمة ذوقان قرقوط

● منعطف الاشتراكية الكبير

ترجمة جورج طرابيشي

● البديل

● مشروع الامل